إقليم متيجة ومدينة المسيلة
خلال العصر الوسيط دراسة جغرافية اقتصادية، اجتماعية
من خلال كتب الجغرافيا والرحلات

د. بشير مبارك
المركز الجامعي عبد الله مرسلي – تيبازة

الملخص:

تهدف الورقة البحثية للحديث عن الوصف الجغرافي والمؤهلات الاقتصادية والوضع الاجتماعي لأبرز أقاليم ومدن المغرب الأوسط، إقليم متيجة ومدينة المسيلة من خلال كتب الرحالة والجغرافيين.

الكلمات المفتاحية:

المغرب الأوسط؛ المدن؛ العصر الوسيط؛ مدينة المسيلة؛ إقليم متيجة.

Summary:

The research paper aims to talk about the geographical description, economic qualifications and social status of the most important regions and cities of Maghreb central, the region of Mitja and the city of M'sila through the books of travelers and geographers.

key words:

Maghreb Central, cities, the Middle Ages - the city of M'sila, Mitja province.

المقدمة:

يعد موضوع مدن وحواضر المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط موضوع خصب للدراسة والبحث، بحيث لاقى اهتماما واسعا وكبيرا بين الباحثين والمؤرخين حديثا، هؤلاء كتبوا كثير حول مجموعة من مدن مغربنا الأوسط خلال العصر الوسيط في صورة: مدينة تلمسان، وبجاية، وقسنطينة وجزائر بني مزعنة...، لكن في المقابل لم تلقى بعض المدن والأقاليم نفس الاهتمام من قبل الباحثين وفي مقدمتها مدينة المسيلة وإقليم متيجة .

إنّ ما يلاحظ على الأوصاف الجغرافية التي قدّمها الجغرافيون الأوائل لبلاد المغرب اتسمت بالنقص، ذلك أنّهم لم يكونوا يعرفون عن المغرب الأوسط إلا القليل، فما عدا إفريقية التي تمكّنوا من معرفة مسالكها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وشبكتها العمرانية بصفة جيدة، امتازت أوصافهم لباقي جهات المغرب بالشمولية فهم يرون البلاد مناطق شاسعة قطنها البربر، ولا يهتمون إلا من حيث دخولها للإسلام، حتى أن البعض في وصفه تجده يخلط بين المدن الجزائرية والتونسية كابن خرداذبه مثلا لم يكن يعلم الكثير عن مدن المغرب الأوسط ولا جغرافية مسالكها[1]، لكن الجغرافيين الذين جاؤوا بعده وضعوا أدب جغرافي هام، وزوّدوا من يهتم بأمور المغرب الأوسط بالكثير من المعلومات، المفيدة حوله [2]،رغم ذلك تبقى المعلومات حول مدنه شحيحة جدا مقارنة بالمناطق المجاورة كمدن المغرب الأدنى أو المغرب الأقصى .

إنّ التاريخ المحلي أصبح من أهم فروع الدراسات والأبحاث الحديثة والمعاصرة، وعلى اعتبار مدينة المسيلة وإقليم متيجة قد سجلا حضورهما القوي في تاريخ الجزائر بمختلف حقبه، فهما جديران بالاهتمام والدراسة.

اعتبارا لذلك كان موضوع: **" إقليم متيجة ومدينة المسيلة خلال العصر الوسيط دراسة جغرافية، اقتصادية اجتماعية من خلال كتب الجغرافيا والرحلات"** .محور ورقتنا البحثية هذه.

خلالها سأتحدث عن الوصف الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي لإقليم متيجة ومدينة المسيلة مرتكزا في ذلك على مرجعية خاصة أساسها كتب أدب الرحلة وكذا كتب الجغرافيا .

تتمحور الإشكالية التي تطرحها الدراسة في: مدينة متيجة ومدينة المسيلة بالمغرب الأوسط للبحث في: واقع المدينة والإقليم في العصر الوسيط، وللإجابة عنها يترتب علينا الإجابة عن تساؤلات فرعية أهمها:

- كيف حددت كتب الجغرافيا والرحلات إقليم متيجة ومدينة المسيلة جغرافيا ؟

- ما هي أبرز المكونات الاجتماعية لإقليم متيجة ومدينة المسيلة؟

02- الوصف الجغرافي لإقليم متيجة ومدينة المسيلة:

تعد كتب أدب الرحلة والجغرافيا من أهم المصادر التي زودت الباحثين بمعلومات قيمة حول تاريخ مدن المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، بحيث وردت فيها معلومات قيمة رغم ندرتها إلا أننا لا نجدها في بقية كتب التاريخ العام خاصة وأن هؤلاء – الرحالة والجغرافيين- قد كتبوا وصوروا كل ما وقع تحت أعينهم خلال زياراتهم لمختلف مدن بلادنا في مختلف المجالات السياسية، والجغرافية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية.

ولعل من أبرز مدن المغرب الأوسط التي أخذت حظها من تلك الزيارات والكتابات مدينة مسيلة، وإقليم متيجة حيث استفاض الرحالة والجغرافيين في وصفهما.

إذن كيف صورت كتب أدب الرحلة وكتب الجغرافيا إقليم متيجة ومدينة المسيلة جغرافيا ؟

أ- إقليم متيجة:

قدّم الرحالة والجغرافيين في كتاباتهم وصفا جغرافيا دقيقا لإقليم متيجة، إذ يعتبر ابن حوقل النصيبي في مقدمة هؤلاء بحيث جعله ضمن مدن إفريقية فقال:" " ... وأما إفريقية فقصبتها القيروان ومن مدنها صبرة، أسفاقس، المهدية ... المسيلة، أشير، سوق حمزة، متيجة، تنس ..."[3].

ما ذهب إليه ابن حوقل حول تحديد موقع متيجة أكده ياقوت الحموي الذي حدّد موقعه في أواخر إفريقية أي في المنطقة التي تلي تونس الحالية، وأشار إلى أن الإقليم كان تابعا للدولة الحمادية، يقول ياقوت الحموي عن متيجة: "...بفتح أوله وكسر ثانيه وتشديده ثم باء مثناة من تحت ثم جيم بلد في أواخر إفريقية من أعمال بني حماد..."[4].

لقد حدّدت كتب الجغرافيا والرحلات أبرز مدن إقليم متيجة فيذكر منها المدية، وفرزونة "... المدية وهي بلد جليل قديم ومنها إلى فرزونة وهي على مدينة على نهر كبير عليه الأرحا والبساتين ويقال لها متيجة..."[5].

مدينة فرزونة التي ذكرها البكري ضمن مدن إقليم متيجة قال عنها الباحث صالح بن قربة أنها مدينة قريبة من البليدة الحالية[6].

إن ما ذكره البكري حول أبرز مدن متيجة – المدية- أكده ليون الإفريقي في كتاب وصف إفريقيا فقال: المدية مدينة بناها الأفارقة تقع في سهل خصيب والسهل الخصيب القريب منها حاليا هو سهل متيجة:"...مدينة بناها الأفارقة على تخوم نوميديا على بعد نحو ثمانون ميلا من البحر المتوسط تقع في سهل خصيب جدا تحيط بها جداول ماء كثيرة وبساتين... "[7].

هذا ويجعل ليون الإفريقي مدينة جزائر بني مزغناي[8] ضمن مدن إقليم متيجة مع ذكر القبيلة التي بنتها – قبيلة بني مزغنة- ثم البساتين المحيطة بها فيقول: " معناها الجزر سميت بذلك لأنها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة، والمدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مزغنة، وهي كبيرة تضم حوالي أربع آلاف كانون فيها دور جميلة وأسواق ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه قرب المدينة من الشرق نهر نصبت عليه طاحونات ويزود السكان بالماء للشرب والأغراض الأخرى، وفي الضواحي سهول جميلة جدا لا سيما سهل متيجة يبلغ طوله خمسة وأربعون ميل وعرضه ستة وثلاثون ميل حيث ينبت القمح الجيد بكثرة ..."[9].

وفي موضع آخر من كتابه نجده يذكر الشفة من مدن الإقليم عند حديثه عن نهرها فيقول:" وهو نهر ليس بالطويل ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى متيجة مجاور لمدينة الجزائر ثم يصب في البحر المتوسط قرب مدينة عتيقة تدعى تمندفوست"[10].

في إطار الكلام عن نهر الشفة نجد أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر يقول:"واد الشفة ينزل من جبال موزايا[11] ويخترق مضيق من أبرع ما تراه العيون ويتصل بوادي سيدي الكبير ثم ينصب في وادي الجر قرب القليعة ويتكون من ذلك وغيره وادي مزفران في البحر شرقي القليعة غرب مدينة الجزائر، أما النهر الذي لا يبعد عن أطلال المستعمرة الرومانية المعروفة عند البربر بتمندفوست فهو وادي حمير في خليج الجزائر في رأس ماتيفو" [12].

يذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر وادي الحراش ولا ندري إن كان هذا الوادي موجود وبنفس التسمية خلال العصر الوسيط أم لا، لكن يذكر في موضع آخر أن المنطقة كانت تسمى سابقا برج القنطرة وبرج آغا، هذا الوادي يتكون في جبل البليدة ويخترق سهول متيجة وينصب على بعد ثمانية كيلومتر من مدينة الجزائر[13].

إذن من خلال ما تم عرضه من نصوص نستطيع القول أن متيجة سهل خصب ضمن أراضي المغرب الأوسط من مدنه وقراه: المدية، جزائر بني مزغنة، تمندفوست، فرزونة وأغرز، والملاحظ على المصادر التاريخية والجغرافية أنّها لم تذكر مدينة البليدة إطلاقا كأحد مدن الإقليم، فلا ندري ما سبب ذلك، هل أن المدينة كانت تعرف باسم آخر أغفلناه أو أغفلت ذكره المصادر؟

لكن بعض الكتابات التاريخية المعاصرة قدمت لنا إجابات تجعلنا نقول أن المدينة لم تكن معروفة خلال العصر الوسيط بهذا الاسم، وإنما أسسّت خلال العهد التركي العثماني بدعم من المهاجرين الأندلسيين " بليدة من أهم وأجمل مدن الناحية الجزائرية عند سفح الأطلس التلي وإلى جانب الوادي الكبير الذي يسقي بمياهه الدافقة البساتين البديعة، ... والبليدة مدينة أندلسية أسسّها سنة (961هـ / 1553مـ) سيدي أحمد الكبير بإعانة مهاجري الأندلس واتخذوها لأنفسهم دارا وملاذا وجعلوها مركزا لصناعتهم وغرسوا بها حسب النظام الأندلسي البساتين، حطّم زلزال سنة (1251هـ/ 1835مـ) هذه المدينة النظرة فأعاد أهلها بنائها بإعانة أتراك الجزائر"[14] اشتهرت متيجة بانتشار الأرحاء والبساتين وتجارة الكتان، وزرع القموح بأنواعها، ومن أهم الأنهار التي تجري فيه نهر الشفة .

ب- مدينة المسيلة:

وأما مدينة المسيلة فقد وصفتها لنا كتب الجغرافيا والرحلات، وحددت موقعها على أساس أنها مدينة رومانية تقع في صحراء نوميديا، يقول الحسن الوزان:"مسيلة مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم صحراء نوميديا على بعد نحو مائة وأربعين ميلا من بجاية، الأسوار المحيطة بها جميلة بخلاف الدور فإنها قبيحة..."[15].

يجعل البكري موقع المدينة قرب قلعة بني حماد[16] على نهر يسمى بنهر سهر أسّسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله، يقول البكري:"...تخرج من القلعة إلى مدينة المسيلة وهي مدينة جليلة على نهر يسمى نهر سهر..."[17] ، أما أحمد توفيق المدني فيشير إلى أن المدينة يجري إلى جانبها واد يسمى بوادي القصب[18].

أسّسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة (313هـ /925مـ)..." [19]، ثم يضيف قائلا حول موقعها بأنها مدينة في بساط من الأرض، من المدن القريبة منها القلعة وغدير واروا [20]، وطبنة كما أشار إلى ذلك أحمد توفيق المدني [21]، سمى الشيعة مدينة المسيلة بالمحمدية.[22]

وأما أحمد توفيق المدني فيصفها قائلا:"مسيلة قرية جميلة فسيحة تتخللها قنوات المياه، يجري إلى جانبها واد القصب... تأسست بها إمارة الحمدونيين ...مسيلة أهم قرى سهل الحضنة..."[23] .

اتخذ العبيديون من المدينة مركز إداريا وبذلك أصبحت عاصمة إسلامية كبرى ذات عمران متسع ومدينة شامخة، إلى أن قضى عليها بلكين بن زيري بن مناد سنة (362هـ/972مـ)، بلكين هذا مؤسس دولة صنهاجة بتونس[24].

تعتبر الفترة الحمادية من أزها فترات تاريخ المدينة، بحيث عقد منصور بن بلكين لأخيه حماد على أشير والمسيلة ليستكفي به مواجهة زناتة، ولما توفي المنصور خلفة ابنه باديس وعين عمه حماد على عمله مستعينا به في إخماد الثورات، وفي سنة (395هـ/1004مـ) كلفه بحرب زناتة فاشترط عليه ولاية المغرب الأوسط فوفى له بذلك، وفي سنة (403هـ/1012مـ) أرسل صاحب مصر إلى باديس بولاية العهد لابنه المعز، فقدّم باديس طلب لحماد يتنازل فيه عم قسنطينة وتيجيس للمعز، فرفض حماد ذلك، الأمر الذي أدى إلى نشوب حرب أسفرت عن تأسيس الدولة الحمادية[25] .

03- الإمكانات الاقتصادية لإقليم متيجة ومدينة مسيلة خلال العصر الوسيط:

لقد زودتنا كتب الجغرافيا بمادة علمية لبأس بها حول المؤهلات الاقتصادية لإقليم متيجة ومدينة المسيلة حيث ذكرت السهول الأودية والأنهار وأغلب المنتجات والمسالك التجارية، فيما يلي سوف نحاول الوقوف عند تلك المؤهلات.

أ- الإمكانات الاقتصادية لإقليم متيجة:

توفر إقليم متيجة خلال العصر الوسيط على إمكانات اقتصادية هائلة ساهمت في وفرة الإنتاج، ووفرت المادة الخام للنشاط الصناعي، وبذلك ساهمت في رواج التجارة الداخلية والخارجية .

فحسب ما وقع بين أيدينا من نصوص توفر إقليم متيجة على مصادر متنوعة للمياه كالأنهار بحيث أشرفت المدينة على نهر كبير، كما أشرفت على العيون، وطواحين الماء يقول البكري عند حديثه عن مدينة المدية:"... المدية بلد جليل قديم ومنها إلى فرزونة وهي على مدينة على نهر كبير ... يقال لها متيجة ... فيها عيون سايحة وطواحين ماء..."[26].

ما ذكره البكري حول الإمكانات المائية لإقليم متيجة أكد عليه ابن حوقل حيث ذكر نهرها ووصفه بالجاري:" ...متيجة في مرج لهم ماء جاري..."[27].

إن النصوص السابقة لم تذكر اسم النهر الذي يجري بمتيجة لكن الدراسات الحديثة تداركت ذلك فذكرت اسمه فسمته بنهر الشفة مثل ما ورد عند الباحث صالح بن قربة في قوله" وهو نهر ليس بالطويل ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى متيجة مجاور لمدينة الجزائر ثم يصب في البحر المتوسط قرب مدينة عتيقة تدعى تمندفوست"[28].

علما أن هذه التسمية – نهر الشفة – قد وردت عند أحمد توفيق المدني باسم وادي الشفة حين ذكره وذكر منبعه:" واد الشفة ينزل من جبال موزايا[29] ويخترق مضيق من أبرع ما تراه العيون ويتصل بوادي سيدي الكبير ثم ينصب في وادي الجر قرب القليعة ويتكون من ذلك وغيره وادي مزفران في البحر شرقي القليعة غرب مدينة الجزائر، ..."[30].

إضافة إلى مصادر المياه المتنوعة المذكورة سلفا كما عرف إقليم متيجة خلال العصر الوسيط بسهله الخصب الفسيح وصفته النصوص بالسهل الجميل:"...وفي الضواحي سهول جميلة جدا لا سيما سهل متيجة يبلغ طوله خمسة وأربعون ميل وعرضه ستة وثلاثون ميل..." [31].

إن تنوع مصادر المياه في إقليم متيجة وشساعة السهل الخصب الفسيح ساعد على تطوير النشاط الزراعي بحيث كان الإنتاج وفيرا بفعل كثرة المزارع والمسارح، وهنا نخص بالذكر وفرة منتوج الكتان الذي بدوره سيساعد في دفع عجلة الصناعة النسيجية بما أن المادة الخام متوفرة والمتمثلة في مادة الكتان تذكر بعض النصوص:"...ومنها إلى فرزونة وهي على مدينة يقال لها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي أكثر تلك النواحي كتانا..."[32].

ومن المنتوجات الزراعية التي كانت وافرة الإنتاج في الإقليم مادة القمح التي خصّصت لها مساحات شاسعة بالقرب من النهر حسب ما ذكر ابن حوقل عند قوله:"... متيجة في مرج لهم ماء جاري عليه أرحية وشعبة من النهر تدخل الدور كثيرة البساتين وهياجة على اسم رستا قها وهو واسع كثيرة القموح"[33].

للإشارة إن مادة القمح التي أنتجت بإقليم متيجة اعتبر من أجود قموح العالم آنذاك يقول الحسن الوزان:"... وفي الضواحي سهول جميلة جدا لا سيما سهل متيجة ...حيث ينبت القمح الجيد بكثرة ..."[34].

ب- الإمكانات الاقتصادية لمدينة المسيلة:

ما قيل عن المؤهلات الاقتصادية لإقليم متيجة ينطبق تقريبا على مدينة المسيلة بحيث توفرت المدينة خلال العصر الوسيط على إمكانات مائية كان لها أثر إيجابي على النشاط الزراعي.

فحسب ما وقع بين أيدينا من نصوص توفرت مدينة المسيلة على مصادر متنوعة للمياه في مقدمتها الأنهار كنهر سهر يقول البكري:"...تخرج من القلعة إلى مدينة المسيلة وهي مدينة جليلة على نهر يسمى نهر سهر..."[35]

ومن مصادر المياه التي توفرت عليها المدينة نذكر جداول مياه تحيط بالمدينة:" ...وهي مدينة في بساط من الأرض عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة وله منافذ تسقى منها عند الحاجة..."[36].

كما توفرت قرب المدينة عيون بالمنطقة المسماة غدير واروا تغذى منها نهر سهر:" ونهر سهر الذي عليه مدينة المسيلة منبعثة من عيون داخل مدينة غدير واروا وهي مدينة كبيرة أولية بين جبال"[37].

هذا وقد أشار أحمد توفيق المدني أن المدينة تخللتها قنوات مياه ويجري إلى جانبها واد القصب[38].

إن توفر مصادر المياه بالمدينة ضاعف من كمية الإنتاج الزراعي خاصة مادة القطن بحيث كثرة البساتين حول المدينة[39]، التي اعتبرت أحد أبرز مدن سهل الحضنة[40].

كما ساهمت الوفرة في اتساع أماكن الرعي التي شجعت على مهنة تربية الأنعام بكثرة الأمر الذي أدى إلى انخفاض أسعارها نتيجة الوفرة الزائدة:"...وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر..."[41].

إن وفرة الإنتاج النباتي من قطن، والإنتاج الحيواني كاللحوم أدى إلاى فتح أسواق داخلية تعرض فيها تلك المنتجات:"... وللمدينة أسواق..."[42].

طبيعة المنطقة الزراعية جعلت غالبية أهل المدينة والمناطق المجاورة لها فلاحون، أما وفرة المادة الخام – القطن- ساهمت في ظهور الصناعة خاصة الصناعة النسيجية لتوفر مادة القطن، علما أن المصادر لم تشير إلى انتشار الصناعة النسيجية، لكن إشارتها إلى أن غالبية أهلها كان صناع دفعنا للاستنتاج أن الصناعة المنتشرة بالمنطقة هي الصناعة النسيجية لتوفر المادة الأساسية فيها وهي مادة القطن:"... السكان كلهم صناع أو فلاحون..."[43].

هذا ويضيف أحمد توفيق المدني نوع من الصناعات الأخرى التي انتشرت بمدينة المسيلة مثل في الصناعة اليدوية :"...وبها صناعة يدوية أهلية جميلة وفقيرة أهمها التطريز بأسلاك الذهب والحرير على الجلد...".[44]

04- الواقع الاجتماعي لإقليم متيجة ومدينة المسيلة:

صورت لنا كتب الجغرافيا والرحلات الحالة الاجتماعية لهما بحيث أشارت إلى العناصر البشرية التي قطنت بهما كما وصفت حالتهم الاجتماعية، وهذا ما نحاول توضيحه.

أ- الحالة الاجتماعية لإقليم متيجة:

استقر بالإقليم العنصرالعربي وهم من الطبقة الرابعة كما ذكرهم ابن خلدون بالعرب المستعجمة، ومن بين تلك القبائل نذكر:"حكيم، وهلال، ومعقل"، هذه الأخيرة – عرب المعقل-استقرت أحد قبائلها بمتيجة وفروعها ثلاث مختار، وعثمان، وحسان، تشمل مختار على روحة، وسليم، وعثمان، وكنانة، أما حسان فعلى ذوي حسان وذوي عبيد الله، وذوي حسان على دليم، والأوداية، والرابش، والرحامنة وأحمر، ويشتمل ذوو منصور على العمارنة، والمنابهة،

وأولاد حسين، وأولاد أبي الحسين، وينقسم بنو عبد الله بدورهم إلى خراج، وحدج، وثعلبة، وجعوان تتفرع كل هذه القبائل إلى بطون عديدة[45] يقول ابن خلدون: " هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية ... وأكلتهم الأقطار المتباعدة"[46].

هذا ويعتبر الثعالبة[47] من أبرز القبائل العربية التي استقرت بمتيجة خلال العصر الوسيط وهي ذات شرف وشجاعة بلغ عدد فرسانها ثلاثة ألف فارس[48]، لها عدة فروع مثل: ثعلبة في بني أسد، وثعلبة في بني تميم، وثعلبة في طيئ، وثعلبة في بني ربيعة[49]، يقول صاحب تاج العروس عنهم:" بهاء العصعص بالضم والثعلبة اسم خلق لا يحصون عدا من العلماء والمحدثين قال السهيلي في الروض : ثعلبة في العرب في الرجال قلّما سموا بثعلب وإن كان القياس كما سمو بنمر وذئب وسبع . لكن الثعلب مشترك إذ يقال: ثعلب الرمح وثعلب الحوض، وبنو ثعلبة قبائل شتى خبر مبتدأ أو معطوف على خلق ويقال لهم الثعالب فثعلبة في أسد وثعلبة في تميم وثعلبة في ربيعة وثعلبة في قيس ومنها الثعلبان : قبيلتان من طيئ وهنا ثعلبة بن جدعاء بن ذهل ابن رومان بن جندب بن خارجة ابن سعد بن فطرة بن طيئ وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور، والثعالب في طيئ يقال لهم مصابيح الظلام، ... وأما القبائل ففيهم ثعلبة بكر بن ريث بن غطفان وفيهم بغير هاء ثعلب بن عنروا وثعلبة اثنان وعشرون صحابيا منهم ثعلبة بن سهيل الطهوي أبو مالك الكوفي سكن الري، وثعلبة بن مسلم الخثعمي الشامي، وثعلبة الأنصاري والأشجعي والثقفي صحابيون"[50].

أما الثعالبة اللذين استقروا بمتيجة وتنقلوا في الصحراء حتى تكديت ، وهنا لا ندري ما المقصود بها، هل يقصد توات البعيدة عن الجزائر، أو تكدمت القريبة من تاهرت، سيطروا على الجزائر ودلس[51]، يرجعهم ابن خلدون إلى عرب المعقل جدهم الذي له من الأولاد سحير أو (صقيل) ومحمد ومن سحير عبيد الله وثعلب فيقول:" أن معقل جدهم له من الولد سحير ومحمد، فولد سحير عبيد

الله وثعلب، فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم ومن ثعلب الثعالبة اللذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر وولد محمد مختار ومنصور وجلال وسالم ..."[52] ، أما نسبهم فيرجع ولد ثعلب بن علي بن بكر بن سحير أخي عبيد الله بن صقيل[53] تذكر لنا نصوص التاريخ أن موطنهم كان بتيطري ثم نزلوا إلى متيجة بعدما تغلب عليهم بني توجين [54]، ويذكر ابن خلدون انتسابهم إلى جعفر بن أبي طالب ، ويؤيد هذا الرأي مبارك الميلي حيث يقول:"...نسب جعفر في الثعالبة صحيح وأنّ جعفر أخو عبد الله الكامل الذي ملك أبناؤه متيجة خلال القرن (03هـ/09 مـ) فلا يستبعد أنهم بقوا هناك بعد ذهاب ملكهم حتى نزل عليهم الثعالبة"[55].

إن النصوص التاريخية لا تمدنا بمعلومات عن تاريخ دخول الثعالبة إلى متيجة، لكن في المقابل تذكر بعض الدراسات الحديثة أنهم دخلوها أواخر القرن السابع الهجري (13 مـ) ، حيث كانوا عاجزين عن الترحال فاستقروا بالتل– متيجة- وأدوا الضرائب للحفصيين والمرينيين اللذين تداولوا ملك متيجة[56].

لقد دخل الثعالبة إقليم متيجة وهم تحت سلطة مليكش أو ملكيش من صنهاجة، إلى غاية أن تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط وقضوا على مليكش، فتغلب الثعالبة على متيجة وملكوه[57].

أما عن رئاستهم في الإقليم فكانت في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغير، وتذكر النصوص عن سباع هذا أنه إذا ما وفد على الموحدين استقبلوه بحفاوة وكرموه إذ يجعلون من فوق عمامته دينارا يزن عددا من الدنانير وذلك أنه أكرم وفادة المهدي بن تومرت لما مرّ بهم[58] وتزودنا بعض النصوص بأن سباع هذا منح ابن تومرت حمارا " ولما اجتاز المهدي في طريقه إلى المغرب بالثعالبة عرب الجزائر كان ساعيا على رجليه فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه اركبوا الحمار يركبكم الخيول المسمومة"[59]، وبعد ذلك استقرت رئاستهم في بني يعقوب بن

سباع، ثم في عقب حنيش، ولما غلب السلطان المريني أبو الحسن على ممالك الزيانيين نقلهم إلى المغرب وصارت الرئاسة لأبي الحملات بن عائد بن ثابت وهو ابن عم حنيش، ثم ولي عليهم إبراهيم بن نصر وبعد أن هلك قام برئاستهم ابنه سالم ابن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن محمد بن سباع كبير الثعالبة وصاحب وطن متيجة، هكذا ذكره ابن خلدون، عاقد سالم هذا الزيانيين كثيرا- أبو حمو- ثم نقض عهده معهم مرارا، ولما تغلب بنو مرين على تلمسان تحيز لهم، ولما استرجع أبو حمو ملكه استدعى سالم أبا زيان محمد بن عثمان الثاني ابن عم أبي حمو ونصبه على الجزائر[60] فزحف إليه أبو حمو سنة (779هـ / 1377مـ) وحاصره بجبال متيجة أياما فاعتقله وأخذه إلى تلمسان فقتله رمياـ قعصاـ بالرماح، ثم تتبع أهله وعشيرته بالقتل والسبي والنهب إلى أن قضوا على بكرة أبيهم[61].

لقد برز من الثعالبة دفين جزائر بني مزغنة عبد الرحمان الثعالبي (786- 875هـ / 1334 – 1470مـ)[62] ارتبطت هذه الشخصية بالتصوف، وأسسّت بالمدينة مدرسة تحمل اسمه[63]، إضافة إلى أبو مهدي عيسى عالم القرن (11هـ/ 17مـ) وعبد الرحمن من فرع محمد بن سباع الذي يرفع البعض نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه[64].

إضافة إلى قبيلة الثعالبة فقد استقرت قبيلة يزيد العربية بمتيجة وهي ذات بطون كثيرة منها: جواب بنو كرز وبنو موسى وبنو سعد مواطنهم كانت أرض بني حسن من صنهاجة إلى متيجة[65]، هذا ما استطعنا الحصول عليه من معلومات حول هذه القبيلة .

إذن إنّ المصادر نجدها تذكر بشكل واضح أنّ الثعالبة قد استقروا بمتيجة، لكن هذا ما لم نجده في ذكر بقية القبائل مثل قبيلة حصين[66] بن زغبة، وقبيلة بنو حسين من بنو مالك بن زغبة، حيث تسود الضبابية حول استقرارهما بمتيجة من عدمه، لكن إذا ما اعتمدنا على ما ذكرناه في تحديد مدن إقليم متيجة ومنها المدية، وخاصة إذا ما علمنا أنها عاصمة التيطري، وبالاعتماد على ما ذكره ابن خلدون حول نزول قبيلة حصين بالتيطري المحاذي للمدية مواطن الثعالبة " ... ونزل هؤلاء حصين بالتيطري وهو جبل أشير ملكوه وتحصون به"[67]، وذكره كذلك أن بنو حسين نزلوا بالمدية[68] يمكننا القول أن حصين وبنو حسين من بين القبائل العربية التي استقرت بمتيجة .

ب- الحالة الاجتماعية لمدينة المسيلة:

تشير النصوص إلى أن ساكنة المسيلة خلال العصر الوسيط ساد بين ساكنتها الفقر المدقع ذلك ما عكسته ملابسهم الرديئة نتيجة ما كان يفرضه عليهم ملك بجاية بحيث سلبهم مداخيلهم بسبب فرض ضرائب باهضة يقول الوزان الذي زار المدينة وتعسر عليه الحصول على الشعير لفرسه:"... يرتدون لباسا رديئا لفقرهم بسبب جيرانهم الأعراب الذين يسلبونهم مداخيلهم وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب، وقد اندهشت بالفقر السائد بمسيلة عند مروري بها، فلم أجد الشعير لفرسي ولليلة واحدة إلا بمشقة، ولو أقمت بها ليلة أخرى لما تمكنت من الحصول على ذلك لكثرة البؤس والفاقة السائدين في المدينة"[69].

من العناصر البشرية التي استقرن بمدينة المسيلة حسب النصوص القبائل العربية من الطبقة الرابعة وأغلبهم منن بني هلال وبطونهم كالأثبج، ورياح، وزغبة وإلى جانبهم جشم، والمعقل حلفاء بني هلال، ومنهم: الضحاك، وعياض، ومقدم، والعاصم، ولطيف، ودريد، وكرفة، وتعتبر عياض من أهم بطون بني هلال التي استقرت بقلعة بني حماد،حماد يقول ابن خلدون:"وعياض نزلوا بجبل القلعة قلعة بني حماد، وغلبوا قبائله على أمرهم وصاروا يتولون جبايتهم..."[70].

ويذكر أحمد توفيق المدني أنّ هيمان وزغبة ارتادت السهول والهضاب العليا صحبة بقايا زناتة البربرية، وهنا رغم عدم إفصاحه عن استقرار هذه القبائل بالقلعة أو المسيلة، إلا أنه يمكننا القول أن هذه القبائل استقرت بالمنطقة، فهذه البطون استقرت بالهضاب ومسيلة والقلعة تدمج حاليا ضمن هذا الإقليم، ويذكر أيضا أن بعض القبائل العربية المختلطة قد استقرت بالقلعة ويذكر من بينها قبيلة الذواودة العربية التي استقرت ما بين الزاب والحضنة[71]، والذواودة أولاد ذاود من بطون مرداس[72].

إضافة إلى أولاد مسلم من بني هلال الذين سكنوا بالمسيلة، والأثبج الذين أقطعهم الحماديين أعمال الزاب والحضنة وضواحي القلعة، هؤلاء الأثبج نشبت بين بطونهم حرو[73].

الخاتمة:

توصلت الورقة البحثية إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يلي:

- لم يقتصر الحضور التاريخي لمدن المغرب الأوسط على الحواضر الكبرى فقط على غرار تلمسان، قسنطينة ، وبجاية، بل ظهرت مدن أخرى كان لها أثر راقتصادي وسياسي واجتماعي في صورة مدينة المسيلة وإقليم متيجة والمدن المحيطة به .

- تعتبر كتب الجغرافيا والرحلات مصدرا مهما في دراسة تاريخ مدن المغرب الأوسيط خلال العصر الوسيط .

- يظهر من خلال المنتجات الزراعية والصناعية لمتيجة والمسيلة أن المغرب الأوسط حقق اكتفاء ذاتيا في مجموعة من المحاصيل الزراعية في مقدمتها القنح والمنتوجات الصناعية مثل الصناعة النسيجية .

الهوامش:

1- صالح بن قربة وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007مـ، ص 227 .
2 - صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص 207- 208.
3- ابن حوقل أبي قاسم النصيبي، **كتاب صورة الأرض " المسالك والممالك والمفاوز والمهالك "، جزء المغرب والأندلس**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص – ص، 216- 217 .
4- ياقوت الحموي الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، **معجم البلدان، المجلد الخامس**، دار صادر بيروت، لبنان، 1977مـ، ص 53 .
5- البكري أبي عبيد، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص – ص، 65 - 66 . – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 255 .
6- صالح بن قربة وآخرون، **المرجع السابق** ، ص 255 .

7- الحسن الوزان بن محمد الفاسي، (1983)، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، ط 02، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي .ج 02، ص 41.
8- مدينة عليها صور على سيف البحر أيضا وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر شربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ، ولهم من العسل، أنظر ابن حوقل، المصدر السابق، ص – ص، 77 – 78.
9- ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص 37 – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص – ص، 255 – 256 .
10 صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 251 .
11- بهذا التجمع السكاني سويقة ومنها إلى حصن موزية قرية قصر من بناء الأول قرية مدينة خالية من السكان قد بنيت بالصخر ، راجع صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 266 .
12- أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظاماتها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية**، طباعة ونشر المطبعة العربية، الجزائر، 1931،ص، 171.
13- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، نفس الصفحة .
14- المرجع نفسه، ص – ص، 198 -199 .
15- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج02، ص 52.
16- عاصمة الدولة الحمادية تقع حاليا قرب بلدية المعاضيد التابعة إداريا لولاية المسيلة، أسّست سنة (398هـ/1007مـ)من قبل حماد الصنهاجي وبقاياها لا تزال إلى اليوم باسم قلعة بني حماد، وكان حماد هذا قد خلع بيعة الفاطميين سنة (387هـ/997مـ)، وأعلن الولاء للعباسيين، وانفصل عن دولة صنهاجة التي كان يتولاها ابن أخيه باديس، وأسس دولة بني حماد الكبرى فجعل عاصمتها أولا القلعة ثم أسس أبناءه من بعده مدينة بجاية سنة (460هـ/1068مـ) .أنظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 25 .

17- البكري، المصدر السابق، ص 59./ أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 24.
- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 238 18
19- البكري، المصدر السابق، ص 59./ أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 24.
- المصدر نفسه، نفس الصفحة . 20
- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 238. 21
22-البكري، المصدر السابق، ص 59.
- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 238. 23

- المرجع نفسه، ص 24. 24
25 - الميلي مبارك بن محمد الهلالي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، مكتبة النهضة الجزائرية، 1963، ج 02، ص 189-190.
26- البكري أبي عبيد، **المصدر السابق**، ص – ص، 65 - 66 . – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 255 .
27-ابن حوقل، المصدر السابق، ص 228 .
28- صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 251 .
29- بهذا التجمع السكاني سويقة ومنها إلى حصن موزية قرية قصر من بناء الأول قرية مدينة خالية من السكان قد بنيت بالصخر ، راجع صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 266 .
30- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق،ص، 171.
31- ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص 37 – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص – ص، 255 – 256 .
32- البكري المصدر السابق ص – ص، 65 - 66 . – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص 255 .
33- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 228 .
34-ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص 37 – صالح بن قربة، المرجع السابق، ص – ص، 255 – 256 .
35- البكري، المصدر السابق، ج 02، ص 59.
36- المصدر نفسه، نفس الصفحة.
37- البكري، المصدر السابق، ج 02، ص 59.
38- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، 238.
39 - البكري، المصدر السابق، ج 02، ص 59.
40- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، 238.
41- البكري، المصدر السابق، ج 02، ص 59.
42- المصدر نفسه، نفس الصفحة.
43- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 02، ص 52.
- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، 238. 44
45- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 01، ص 49 .
46- ابن خلدون، عبد الرحمن، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة ومراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م، ص 05 .
47- جنس من الحيوانات مشهورة من فصيلة الكلبيات ورتبة اللواحم يضرب به المثل في الإحتيال، لكم ما يهمنا نحن قبيلة الثعالبة العربية كما نذكر ذلك في المتن أنظر- الأستاذ شوقي ضيف وآخرون، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004مـ، ص 96 .
48- الحسن االوزان، المصدر السابق، 56

49- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري الإمام العلامة ، **لسان العرب، المجلد الأول**، دار صادر، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص 238 .
50- الحسين الزبيدي السيد محمد مرتضي، **تاج العروس من جواهر القاموس، ج 02**، تحقيق علي هلالي ومراجعة عبد الله العلايلي وعبد الستار محمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط 02، 1987مـ، ص – ص، 91- 93 .
51- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 56 .
52- السلاوي الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، ج 02**، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1954مـ ، ص 161 .- ابن خلدون، المصدر السابق، ج 06، ص 79 .
53- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 84 .
54 - نفسه، نفس الصفحة – مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 296 .
55 مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 159 .
56 المرجع نفسه، ص 296 .
57 ابن خلدون، المصدر السابق، ص 84 .
58- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 84 .- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 296 .
59 السلاوي ناصر الدين، المصدر السابق، ص 90 .
60- مبارك الميلي، نفسه، نفس الصفحة .
61-ابن خلدون، المصدر السابق، ص – ص، 84 – 85 .
62- مبارك بشير، **المدارس التعليمية بالمغرب الأوسط على العهد الزياني(633- 962 هـ / 1235 – 1554 مـ)، رسالة انيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط**، إشراف الدكتور عبيد بوداود، جامعة معسكر، نوقشت الرسالة بتاريخ 29 جوان، 2011 مـ .
63- يحيى بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج 01**،منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط02، دون تاريخ، ص 430.- يحيى بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج 01**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 218 .
64- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 297 .
65- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 297 ..
66- لحصين زغبة بطنان عظيمان، جندل وخراش، فمن جندل أولاد سعد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل رياستهم في بني خليفة، ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل بن خراش ريلستهم في ولد رحاب بن عيسى بن أبي بكر بن زمام بن مسعود، أنظر ابن خلدون، نفسه، ص 59 . – مبارك الميلي، ص 164 .
67- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 58 .

68-المصدر نفسه نفسه، ص 64 .
69- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 02، ص 52.
70- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 161.
71- توفيق المدني، المرجع السابق، ص140.
72 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 163.
73- المرجع نفسه، ص- ص 163-205.

قائمة المصادر والمراجع:

01- ابن حوقل أبي قاسم النصيبي، **كتاب صورة الأرض " المسالك والممالك والمفاوز والمهالك "، جزء المغرب والأندلس**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

02- ابن خلدون، عبد الرحمن، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة ومراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م.

03- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري الإمام العلامة ، **لسان العرب، المجلد الأول**، دار صادر، بيروت، لبنان، دون تاريخ .

04- البكري أبي عبيد، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ .

05- بن قربة صالح وآخرون، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007مـ .

06- الحسن الوزان بن محمد الفاسي، (1983)، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، ط 02، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي .ج 02 .

07- الحسين الزبيدي السيد محمد مرتضي، **تاج العروس من جواهر القاموس، ج 02**، تحقيق علي هلالي ومراجعة عبد الله العلايلي وعبد الستار محمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط 02، 1987مـ .

08- السلاوي الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، ج02،** تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1954مـ

09- شوقي ضيف وآخرون، **المعجم الوسيط،** مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004مـ

10- مبارك بشير، **المدارس التعليمية بالمغرب الأوسط على العهد الزياني(633- 962 هـ / 1235 – 1554 مـ)، رسالة انيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط،** إشراف الدكتور عبيد بوداود، جامعة معسكر، نوقشت الرسالة بتاريخ 29 جوان،2011م.

11- المدني أحمد توفيق، **كتاب الجزائر تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظاماتها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية،** طباعة ونشر المطبعة العربية، الجزائر، 1931م .

12- الميلي مبارك بن محمد الهلالي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث،** مكتبة النهضة الجزائرية، 1963م، ج 02 .

13- ياقوت الحموي الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، **معجم البلدان، المجلد الخامس،** دار صادر بيروت، لبنان، 1977م.

14- يحيى بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج 01،**منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط02، دون تاريخ .

15- /// ، ///، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج 01،** دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004م .